نماذج من معالم مدينة الجزائر المزالة

من طرف الإستعمار الفرنسي

د.محمد الطيب عقاب

معهد الآثار

توطئة: يتكون اسم مدينة الجزائر من عدة معان، بعضها مستمد من الطبيعة، بمن فيها الحيوانية،وحتى في الرقم العددي، أو من اللغات الأجنبية.

فمن الطبيعة، وهوأشهر ما ورد على كثير من الباحثين، الذين يعتقدون أن اسم المدينة متجذر من عدد الجزر أو الجزيرات القريبة من البر الذي بنيت عليه المدينة،وتلك الجزر الموزعة على شاطئ البحر كانت متفاوتة المساحة،وإحداها كانت كبيرة سماها البكري(سطفلة)، ولعلها هي المعروفة عند عامة الناس ب (أرغل)[1].أما الأخريات فكانت من ذوات الحجم الصغير، وعددها الظاهر فوق سطح البحر ثلاثا.أكد محمد بن شنب أنها كانت موجودة قبل أن تلتصق بالكبيرة[2].

وأما(ايكوسيم)فهناك عدة تأويلات لدى الباحثين،فمنهم من يرى أنها كلمة يونانية،وتعني عشرين، أي مدينة العشرين نفرا[3].وآخرون يرون أنها تعني جزر الشوك، لاعتقادهم بوجود نبات شوكي يعرف ب (ايكوسيم)، وهو ما جعل البكري يطلق عليها اسم (سطفلة)، بينما يرى آخرون أن(ايكوسيم)أو(أقسيوم)أنها تعني طائر البحر– الذي هو بحجم الدجاج أو النورس.

وعن الإسم المشهور لمدينة الجزائر في العهد الروماني والذي أصبح هو المتداول لدى الباحثين(ايكوسيوم) أو(إيكوزيوم) فإنهم قاموا فقط بتحريف الاسم إلى ما ضبطناه في هذا البحث.

غير أن اسم المدينة قد تغير تغييرا جذريا، فأصبح غير مرتبط بالأسماء المذكورة، سواء في المعنى أو في الاشتقاق، بل أصبح يحمل اسما للذين وفدوا إليه من متيجة و ما جاورها، دون معرفة تاريخ وصول ذلك الوافد، غير أننا نعرف تاريخ إحيائها من طرف بلكين بن زيري ابن مناد،في النصف الثاني للقرن الرابع الهجري، إلا أن إبن عذاري، صاحب البيان، يقدم هذا التاريخ إلى ما قبل نهاية النصف الأول من القرن الرابع هـ .

---

[1] ع.الر. الجيلالي ، « مدينة الجزائر عبر التاريخ » ، ضمن مجموع : تاريخ المدن الثلاث. (1972)

[2] م. ابن شنب « الجزائر » ص 14 ، في مجلة المجمع العلمي العربي ، ح 8 / م 5 (1929).

[3] ابن شنب « نظرة إجمالية في تاريخ مدينة الجزائر » ، ضمن مجموع تاريخ المدن الثلاث ص 70

ومهما كان الأمر فإن المصادر التاريخية لم تجعل من اسم بلكين ملتصقا بالمدينة بينما العامة جعلته لصيقا به، إلى أن اشتهر أحد علمائها، وهو عبد الرحمن الثعالبي، في القرن 15 م، فأصبحوا يلقبونها بمدينة سيدي عبد الرحمن .

وهنا أقف قليلا عند اسم دزاير، تزايرت، اللذين أصبحا هما المشهوران عند العوام .ولا أخال أنهما مأخوذان من اسم الجزاير، بل من اسم جد بلكين، لأن أباه يسمى يوسف، وهو زيري أو دزيري حسب بعض المصادر، وهذا اللقب مازال متداولا في كثير من المناطق الجزائر العميقة .

أو أن الإسم (تزايرت) مشتق من اللون الأبيض الناصع، وخاصة ضوء القمر، وهذا في نظر البعض يعتبر من أسماء الجزائر الحديثة ، البيضاء، والبهجة.

بينما اسم وهران فواضح من اسمه أنه مشتق من الإسم المحلي في الجزائر وهو الأسد، و قد ورد الإسم في صيغة الجمع، ومفرده(أهر). والجدير بالذكر أن اسم الأسد في الجزائر له عدة أسماء ضبط باسم خاص لدى سكان مختلف المناطق، حتى أنه ضبط في مناطق جبل بابور بالاسم العربي(بلحارث) أي (أبو الحارث).

هذه التوطئة كان لابد من وضعها قبل استعراض النماذج المقترحة في هذا العرض، وهي تضم بعض المساجد، كمسجد السيدة ومسجد حاج موزومورتو، ومسجد كتشاوة،وهذه كلها قد دمرت وأزيلت من الوجود،والمسجد الوحيد مازال موجودا هو مسجد علي بتشين.

مسجد السيدة:

إن المظان التاريخية لا تفيدنا بشيء عن صاحبة المسجد سوى أنها من أعقاب الدولة الناصرية(الحمادية) ببجاية.كما لا تشير إلى تاريخ دخولها مدينة الجزائر، ونفس هذا النقص يشمل هيكل المسجد نفسه إلا من كلمة مقتضبة بأنه يحمل نمط العمارة المحلية ، ولا يعرف تاريخ تشييده بالضبط سوى أنه ورد اسمه في إحدى الوثائق الضبطية التي هي سنة 1564 م.

ومن خلال رسمين حفظتهما لنا الإدارة الفرنسية نلاحظ في أحدهما يتكون من الاتجاهات المتعامدة، أوما يعرف بالإصطلاح الأثري بصفوف من الأساكيب الموازية لجدار القبلة، وأخرى عمودية عليه، أي البلاطات. متكونة من الأعمدة من الرخام المعرق المائل إلى اللون الأشهب، الغالب على اللون

الأبيض، حاملة تلك الأعمدة عقودا منكسرة متجاوزة واتصفت تلك الأعمدة بتشكيل فني متميز، ومعها مثيلاتها في مسجد كتشاوة، بجعل أوراق الأكانتس متدلية إلى أسفل، غير محورة[4].

وعلى ذكر المئذنة فإنها كانت على النمط الموحدي، مثلها مثل التي شيدها الزيانيون في تلمسان والجزائر العاصمة، والمرينيون بالمغرب الأقصى، وقبلهما الموحدون في مراكش(الكتيبية) وأشبيليا(لاخيرلدا) بإسبانيا.

أما المسجد الآخر الذي أزالته الإدارة الاستعمارية فهو **مسجد الحاج حسين ميزو مورطو**[5]، الذي نشر جزؤه الخارجي مع مئذنته المستديرة في جل الأعمال الفرنسيين بالجزائر منذ بداية الاحتلال، وعلى رأسهم الباحثين: ليسور و ويلد، في كتابهما المعنون بـ: رحلة ممتعة إلى مدينة الجزائر، الذي نشر سنة 1835 م .

وذكر ديفولكس بعض معالمه، منها القبة المركزية، ومئذنته، ذات الأقسام الثلاثة، بدايتها القاعدة المربعة، المنجزة ببدن، تناوبت فيه الأخاديد البارزة و الغائرة، وهذا يذكرنا بالنمط البنائي الذي كان سائدا في عمارة قلعة بني حماد. ثم اتخذ لبدن المئذنة الأوسط شكلا مثمنا. بواسطة حجارة هيئت بأشكال موحدة، وهي من مادة الحجر الرملي، السهلة التشكيل. أما الجزء الأعلى لما قبل الجوسق فقد كان[6] أيضا مثمن الشكل. ولكنه كسي بالمربعات الخزفية المتعددة الألوان. بينما انتهت المئذنة بجوسق مستدق،وعليه جامور مزود بثلاث تفافيح، شدتإليه راية خضراء.

ويبدو أن المساجد لم تكن ذات أهمية تذكر في الجانب الفني، ما عدا السيدة الذي أشارت بعض المراجع أنه كان محكم الصنعة الفنية والإطار الجمالي، دون أن تشير إلى جوانب أو العناصر الفنية المطبقة عليه، وإن كان يرقى، حسب رأيي إلى المستوى الفني الذي كان عليه مسجد كتشاوة، مثلما سيأتي ذلك بعد قليل.

---

[4]نشر رسم مسجد السيدة بشكل واضح في كتاب لبربر و غجر ، الموسوم ب : رحلة حول مدينة الجزائر ، و هو في حالة التهديم . وأثار صاحب الكتاب، في مقال له نشر بالمجلة الإفريقية، أن تهديمه هز مشاعره، جزاء الأسلوب العنيف الذي لجأت إليه إدارة فرنسا، وهي نسفه، حينما استعصى عليها التهديم ، فعمدت إلى نسفه، خاصة المئذنة، التي أدى سقوطها إلى ارتجاج المدينة برمتها.

[5]ليسور و ويلد (1835) ، رحلة ممتعة في مدينة الجزائر .

[6]ديفولكس (2000) ، مساجد مدينة الجزائر ،....، ترجمة و تعليق مصطفى بن حموش ، ص 89.

إذن **فمسجد كتشاوة**[7]، الذي يعتبر من الوحدات المعمارية التي أزالتها فرنسا من عمارة الجزائر وعمرانها نهائيا، و عوضت مكانه بكاتدرائية مسيحية، بعد أن حولته إلى كنيسة، قبل تهديمه نهائيا، ولا نعرف المظهر الخارجي للمسجد إلا الرسم الذي أعاد نشره غولفان وهو يتحدث عن قصر حسن باشا[8].

ومسجد كتشاوة الوحيد الذي أمدنا الأرشيف الفرنسي بمخططاته المعمارية، ورسومه الداخلية، التي كانت مطابقة على الوصف الذي تركه لنا التمغروتي في كتابه النفحة المسكية. بالرغم من أن المظهر الخارجي بسيطا جدا.و هو ملاصق لقصر حسن باشا ومع مستواه في انطلاقة بنائه، وليس كما هو عليه الحال حاليا مرتفع عن القصر بأكثر من مترين.

فنظامه التخطيطي مرتسم على بساط شبه مربع، منتهي بقبة مركزية تغطي تقريبا بيت الصلاة مدعومة – أولا – على عقود منكسرة متجاوزة، مستندة – هي الأخرى – على أساطين الرخام المعرق، ذي اللون الأشهب كالتي رأيناها في مسجد السيدة، في الشكل والحجم، والإنجاز الفني، دعم بيت الصلاة بالمجنبات من الجهات الأربع، شكلت على سطحها قباب صغيرة، دون مستوى القبة المركزية،لغرض تدعيمها بواسطتها. و ملئت الأركان الفارغة بحنيات في شكل مثلوثات ركنية، حليت بقشيبة من مختلف العناصر الفنية، كما كسيت القبة المركزية – من الداخل طبعا – بأنصاف الدوائر، كأنها جسم سمكة، فضلا عن تمديد الأشكال الشعاعية.أما جدرانه فقد كسيت هي الأخرى بالمربعات الخزفية، ذات الألوان المختلفة لعناصر مختلفة من العناصر البنائية، وقليل منها الهندسية، مع بعض الحقول التي تضم الزخرفة الكتابية، ذات النمط من خط الثلث الجميل والذي يعتبر سمة الخط الجزائري في العهد العثماني[9].

وأعيد هنا ما قلته في أكثر من مناسبة، تنويرا للذين أشكل عليهم الأمر، أن الهيكل المعماري لمسجد كتشاوة لايمت بأدنى صلة للهيكل الأصلي.وجاء إلحاحي هذا لوقوع كثير من الناس في شبهة ولبس في أنه هو المسجد الأصلي، ويكفي دليلا على ذلك الظواهر التي برزت في:

-وضعه على العملة الرسمية لدولتنا(فئة 100 د.).

---

[7] لا يعرف بالضبط تاريخ بناء هذا المسجد ، و لكن المؤكد أنه لم يكن موجودا في رسم إحدى اللوحات المنجزة قبل نهاية القرن 14 و بدايته. غير أن هناك لوحة تأسيسية تضمنت تاريخ صيانته من طرف حسن باشا قبل نهاية القرن 18 م ، يراجع : عقاب ، (2000) ، لمحات عن العمارة و الفنون الإسلامية بالجزائر.

[8] ل. غولفان (1988) ، قصور و دور مدينة الجزائر ، ص 64.

[9] للاستزادة حول الوصف الفني ، يراجع كل :

ر. دوكالي (1972) ، مساجد مدينة الجزائر في العهد العثماني.

م. ط. عقاب (2000) ، لمحات ... (المرجع السابق).

أ. ليسور ، و ويلد (2001) ، رحلة طريفة في إيالة الجزائر ، ترجمة م،جيجلي.

- وضعه كعلامة تاريخية جزائرية، للتشهير به في الشوارع من خلال الألواح الخزفية، وتثبيتها في الشوارع الرئيسية في العاصمة، بل إن أحد الفنانين التشكيليين أهدى لوحة تحمل رسمه إلى المجلس الإسلامي الأعلى ، رغم تحذيري له.

– احتواء بعض الكتب ذات الطباعة الفاخرة على صورة تلك الكنيسة، والتعليق عليها بأنها مسجد كتشاوة.

ولمن يريد الاقتناع على كل ما أشرت إليه فليراجع الجزء الثالث[10]من سفر رافوازيي، حيث قدم ثلاثة مشاريع، تقدم بها أصحابها لنيل شرف الشروع في بناء الكاتدرائية التي مازالت قائمة،والتي نالت حظوة الترميم، وإن كنت أبارك ذلك، حتى تبقى شاهدة، على ما اقترفته الإدارة الاستعمارية في حق حضارتنا من تمسيخ و تشويه، حتى أننا أصبحنا نبني مساجدنا على هيأة الكنائس وأبرز مثال على ذلك جامع الأمير عبد القادر بقسنطينة.

أما ما يخص المساجد الأخرى بمدينة وهران، فقد أزيلت كلها، وأبقت فقط على مجسد الباشا، حيث لجأت إلى تطويقه بسور، قصد تهيئة مساحة خاصة، مزودة بنافورة المياه، مع بهو عند المدخل، و لا أريد - هنا –تأويل هذا العمل، الذي قامت به الإدارة الفرنسية بإنجازه، ولكن يكفي التأكيد أنه من عملها.

والذي يطالع أسفار إيسكير الثلاثة، حول الرسومات التاريخية، يجد لا محالة أن مدينة الجزائر رسمت بمختلف الأشكال والأحجام، بالرغم من أنهم يصفونها بالشكل الهرمي أو المثلث، غير أن بعض الرسومات أنجزت أقرب إلى المربع، والتي تعتبر - في نظري – من أدقها، من حيث المعلومات الدقيقة، رغم أن معلوماتها كانت باللسان الإيطالي، نشرت في النصف الأول من القرن السادس عشر، وأخرى أدق منها، ولكن بدون معلومات، رسمت من طرف أحد الإسبان مع نهاية القرن الرابع عشر[11] وهذه الأخيرة لنا صورة كاملة لعمران مدينة الجزائر، بمن فيه عمران الجزر الأربع، الذي مكن خير الدين – فيما بعد – من ربط المدينة بتلك الجزر، بعد تهديمه لما بناه الإسبان على الجزيرة الكبيرة، وأصبح يسمى برصيف خير الدين [12] .

وإذ نشير إلى هذا، فلأن جل الباحثين، يرجعون الأسوار المطوقة للمدينة إلى الفترة العثمانية، وفاتهم أن يشيروا إلى ما قام به المسؤولون في الفترة المذكورة. لايعدو أن يعتبر مجرد تحصينات، أو إضافات لما اعترى الأسوار من التهشيم والإتلاف. نتيجة عدة عوامل، من طبيعة إلى ما امتدت إليه يد الإنسان، كتغيير وحدة من الوحدات إلى وحدات أخرى، راقت لحاكم ما القيام بها، من توسعه أو بناء مرفق.

---

[10] رافوازيي ، (1946) ، الإستكشافات العلمية للجزائر ، ج. 3 ، لوحة 14.

[11] سيرة المجاهد خير الدين بربروس (2009) ، تحقيق ... ع .الله حمادي .

[12] ابن شنب ، المرجع السابق ، هامش (3) ، ص 64.

وهو ما يلاحظ – مثلا – على باب عزون، الذي غير بآخر، عليه ملامح الفترة الحديثة عما قبل الفترة العثمانية، وذلك بالمقارنة مع باب الواد – الذي يبدو لم يتعرض للتبديل، الفارق في العمل البنائي وحتى في الإطار الفني. أو لأن التوسعة لم تشمل الجهة الغربية للمدينة[13]بالرغم من وجود برج يعرف باسم برج الأندلس.

وقبل أن نضع نقطة النهاية لهذا العرض، نتساءل عن المبررات التي دفعت الإدارة الفرنسية لتهديم أسوار المدينة، بمجرد ترتيب أغراضها المادية بالمدينة، ذلك لأن الأسوار لا تعيق توسعة الشوارع، أو إحداث المساحات، أو بناء العمارات، بل قامت بتعرية المدينة، واستبدال الأسوار بالسلالم، حتى يكون كل شيء مفضوحا، وغير قابل للاحتماء.

وبالعودة إلى استهلال هذا العرض أقول إن مدينة الجزائر كانت بها كل مقومات المدينة المعروفة في الحضارة الإسلامية، ولم يكن للأتراك العثمانيين أي دور في نمائها، المهم ما كان منهم من التحسينات، أو بناء مساجد، ليخلدوا ذكراهم، أو بناء دور لهم على حساب ما كان مبنيا من قبل،وهو أمر يلجأ إليه كل من يتولى أمور البلاد.

[13] ليسور و ويلد ، المرجع السابق رقم 5 ، لوحة 16.

بعض مساجد مدينة الجزائر

مسجد حسين ميزومورتو

مئذنة مسجد بشين

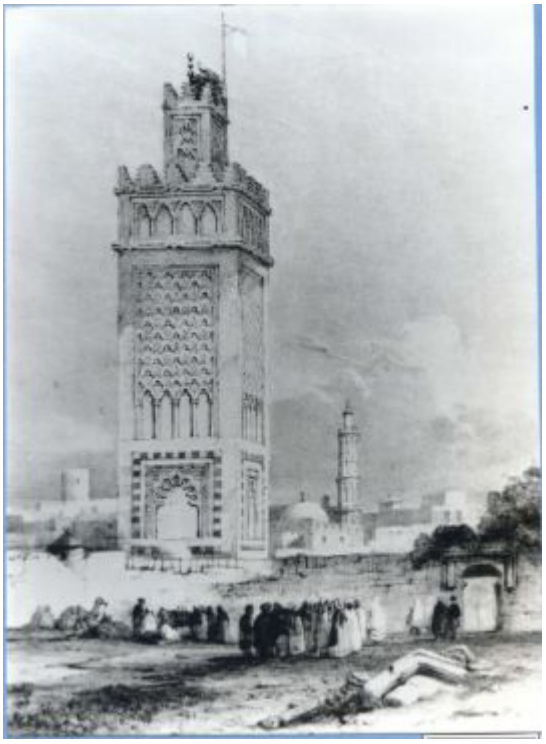

مئذنة أحد مساجد وهران المفقودة

مسجد السيدة بوسط مدينة الجزائر

داخل مسجد كتشاوة الأصلي